لقد كانت الواجبات الملقاة على عاتق المدفعية من أعقد الواجبات للمدفعية في العالم، حيث استخدمت، بالاضافة لواجباتها الأساسية، في بناء حزام ناري قوي حول المخيمات، ومنع الانعزاليين من الاقتراب منها، وذلك بقنص دباباتهم وعرباتهم التي تقدمت لاحتلال هذه المخيمات وإبادة سكانها. واستخدمت المدفعية الثقيلة أيضاً، ولأول مرة، في إرشاد مجموعاتنا التي خرجت من تل الزعتر بعد الحصار الطويل وضلت طريقها أثناء الليل؛ وذلك بإطلاق قذائف المنثار التي تنفجر على ارتفاع ٥٠ قدم. لقد عمل الانعزاليون على تضليلهم، برماية طلقات الاشارة ليتجهوا نحوهم، وكان لا بد من استخدام نوع مميز من القذائف لهذا الغرض، وتحقق النجاح، وأرشدت المجموعات ووصلت أماكنها بسلام. أما الامر الاكثر تعقيداً في استخدام المدفعية فكان قصف مواقع الخصم القريبة جداً من مواقع الثورة. فقد فرضت ظروف معينة قصف مواقع كهذه، وخصوصاً حين لم تتوفر الذخيرة في المواقع الثورية، بسبب الحصار الطويل المفروض عليها. كان هذا هو الحال، مثلاً، بالنسبة لتل الزعتر الذي حوصر لمدة ٥٥ يوماً، حيث لم تكن مواقع الانعزاليين تبعد عنه بأكثر من عشرات الامتار. وبالرغم من إدراك المدفعية الفلسطينية لمحاذير ومخاطر القصف في حالة كهذه، فقد أمكن إنجاز المهمة بنجاح ودون تسجيل أية مخاطر تذكر. ومن المعروف أن هذا النوع من الرمي، والذي يسمى في علم المدفعية «رمي الاهداف القريبة من قواتنا ورمي الأهداف الدقيقة»، يحتاج إلى مواصفات خاصة في المدفع، يشترط أولها أن يكون الموقع في الربع الأول من حياته، على اعتبار أن للمدفع أربعة أرباع حياة. كما يشترط أيضاً أن تؤخذ بعين الاعتبار الاحوال الجوية وتصحيحاتها، وهذا يتطلب برقية جوية؛ بالاضافة إلى وجوب الاعتماد على ضبّاط ملاحظة أكفّاء لهذا النوع من الرمي، وهنا لعب الأخوة في تل الزعتر دوراً بالغ الأهمية في هذا المضمار وساعدوا على إنجاح مثل هذه الرميّات.

لقد أطلق اسم «رميّات الاعصاب» على مثل هذا النوع من الرمي، لما يحتاجه من دقة ليست عادية، وحسابات غير بسيطة، بالاضافة لانقباض الاعصاب منذ اللحظات الأولى لمشاغلة الهدف وحتى الانتهاء من ذلك، والتأكد من نجاح الرمي، وعدم إيذاء المواقع الصديقة. وهنا كانت مرحلة جديدة وتجربة غنية للمدفعية الفلسطينية.

أما المرحلة الأخيرة، والمستمرة إلى الآن، والتي يمكن اعتبارها المرحلة المميزة للمدفعية الفلسطينية، فهي التي أثبتت فيها تفوقها التكتيكي على أي شكل من أشكال التنظيم المدفعي السائد في العالم، نسبة للإمكانيات المتواضعة، والمتوفرة لها في الثورة. فعلى امتداد تاريخ الحرب الطويلة مع العدو الصهيوني – الحرب الطويلة مقابل الحرب القصيرة – تقف المدفعية الفلسطينية وجهاً لوجه أمام جيش مسلح بأحدث المعدات المتطورة، في حرب المواجهة، بين الامكانيات والمعدات المتطورة اللامحدودة، وبين الارادة الثورية اللامحدودة أيضاً، والغلبة دائماً لأصحاب الارادة. وتاريخ الحروب حافل بالبرهان.

سمات متميزة للمدفعية

ولرجال المدفعية في الثورة الفلسطينية، مثلهم مثل باقي إخوتهم المناضلين، مزايا